

خصائص شعره :

يمكننا ببساطة أن نقسم شعر النبأ إلى ثلاث مراحل رئيسية ، تتميز كل منها بخصائص معينة ، وسمات محددة ، وفيما يلي إشارة موجزة لهذه المراحل ⁽²⁰⁾ :

المرحلة الأولى :

ويمكن أن نطلق عليها المرحلة القرمزية ⁽²¹⁾ ، ولما نعى بها اللون القرمزي الذي ميز أعمال الرسام العالمي الشهير بيكاسو في فترة معينة ، وإنما المقصود هنا هو مرحلة البدايات الشعرية الأولى ، التي كان النبأ يحاول فيها صياغة (المصيدة) على منوال الشعراء السابقين عليه ، وخاصة شعراء المعلقة ، والمصاليك ، وبعض كبار وصغار العصرين الأموي والعباسي .

وفى هذه المرحلة المبكرة نجد النبأى يطرق تقريبا نفس الموضوعات التى طرقها هؤلاء الشعراء (مدح - فخر - رثاء - هجاء - وقوف بالمأطلال - شكر على هدية ... الخ) كما يلتزم شاعرنا بعمود الشعر : يلزمه ولما يكاد يبرح عنه إلما فى بعض الأوقات العصبية التى تفرضها عليه حاجاته الطبيعية .

والمقصيدة عند النبأى - فى تلك المرحلة القرمزية - لا تكاد تتميز بسمات شخصية ، وإنما هى نفسها سمات الشعراء الذين يحاكيهم : فهو عندما يحاكى مثلا قصيدة للنابغة أو فرزدق ، أو دعبيل الخزاعى ، تأتى قصيدته وكأنها هى هى قصيدة واحد من هؤلاء لفظا ومعنى ، وبحرا وقافية .

وبخلاصة الملاحظات الموضوعية التاريخية المقارنة لهذه المرحلة ، أن النبأى يؤكد للجميع - وبما لا يدع مجالاً للشك أو التردد - أنه يمتلك نفس الموهبة ، ونفس التقنية التى يمتلكها الشعراء السابقون .

وقد ذهب العلامة أ . روكى A . Rocky فى بحثه الهام المنشور بالمجلة الأفرو آسيوية (العدد 113 لسنة 1840) إلى أن من يريد أن يطلع على خصائص الشعر العربى كله : يمكنه أن يرجع ببساطة إلى شعر النبأى ، وخاصة فى مرحلته القرمزية

(22)

.

المرحلة الثانية :

وهى التى أجمع الباحثون على تسميتها بالمرحلة الأستوائية . وفى هذه المرحلة يقوى عود الشاعر ، ويصبح صوته أجش ، وتبدو عليه علامات البلوغ الشعرى المبكر ، وهنا يغدو الحزن المأسوى هو الغالب على معظم إنتاجه ، الذى يحس القارئ له بنكهة خاصة ، ويكاد يشم له رائحة متميزة !

ومن ثم جاء وصف المرحلة بالاستوائية نسبة إلى الفعل (استوى) أى نضج .. والدواع أن القصيدة النباحية تنضج بالفعل ، وتصبح جاهزة للتقديم إلى جوعى البطن والروح معا .

وقصائد هذه المرحلة الاستوائية تتميز كلها ، وبدون استثناء واحد ، بطابع مأسوى فاجع : والشاعر فيها إما جائع يتلوى ، أو عطشان يتحرق ، أو يائس يتهاوى ، أو سائل يستجدى ، أو حائر يتخبط ، أو مريض يتوجع .. ومع ذلك فنحن لا ننكر أن الباحث عن المثالب يمكنه أن يعثر هنا أو هناك على بعض لمحات السعادة ، أو لمعات الفرح ، ولكنها ما تلبث أن تختفى وتنطفئ وتتلاشى فى ظلام الوحشة المقاتل الذى يلف حياة النباحى ، والتى يجثم فوقها عصره البغيض الخداع ، فيكاد يخنق أنفاسه ، ولما تخرج منه إلّا أنات متوجعة ، يمكن سماعها بوضوح من تحت الأنقاض .

ونحن نذهب إلى أن هذا الطابع المأسوى الحزين الذى يغلف قصائد تلك المرحلة الاستوائية هو السبب الحقيقى وراء إطلاق كنيته (أبى الليل) على شاعرنا المسكين ، وليس كما ذهب كل المؤرخين المغرضين أنه كان يعشق الليل ، ويتجول بين خرائبه ومغانيه ⁽²³⁾ .

المرحلة الثالثة :

وهى التى ذهب اثنان من الداخوة المباحثين⁽²⁴⁾ إلى تسميتها : المرحلة الدبوسية . وهى المرحلة التى خرج فيها النبأى من المرحلة الاستوائية ليدخل مرحلة أخرى جديدة تتميز بالإحساس الساخر بعدم الجدوى ، والاستهزاء الحاد والمديب كرأس الدبوس !

يقول المباحثان بالحرف الواحد : " ولما يرجع هذا الإحساس إلى اليأس من تغيير العالم بمقدار ما يرجع إلى (المشك) فى مقدرة الشاعر نفسه على هذا التغيير " ثم يتساءلان : ما هى وسيلة الشاعر فى تلك المرحلة ؟

وتأتى إجابتهما قاطعة : " إنه يستخدم ال ironie الذى استخدمه من قبل كل من أرسطوفانس ، والمحطية ، وأبو العلاء ، ونيشيه ، وكافكا .. وكل الموتورين . وقد استطاع النبأى بهذا الأسلوب الساخر أن يصل إلى مستوى متقدم للغاية فى مجال الكشف عن قارته المجهولة ، وسط مملكة الماء "

(25)

ومن جانبنا نقول: إن هذه المرحلة الدبوسية قد استمرت مع النجاح حتى آخر أيام حياته، وقد طالمت إلى حد ما، نظرا لأن الشاعر قد آثر ضربا من العزلة، كان قد ضربه على نفسه، بالإضافة إلى ما ضربه عليه المجتمع من ضرائب واستقطاعات!⁽²⁶⁾